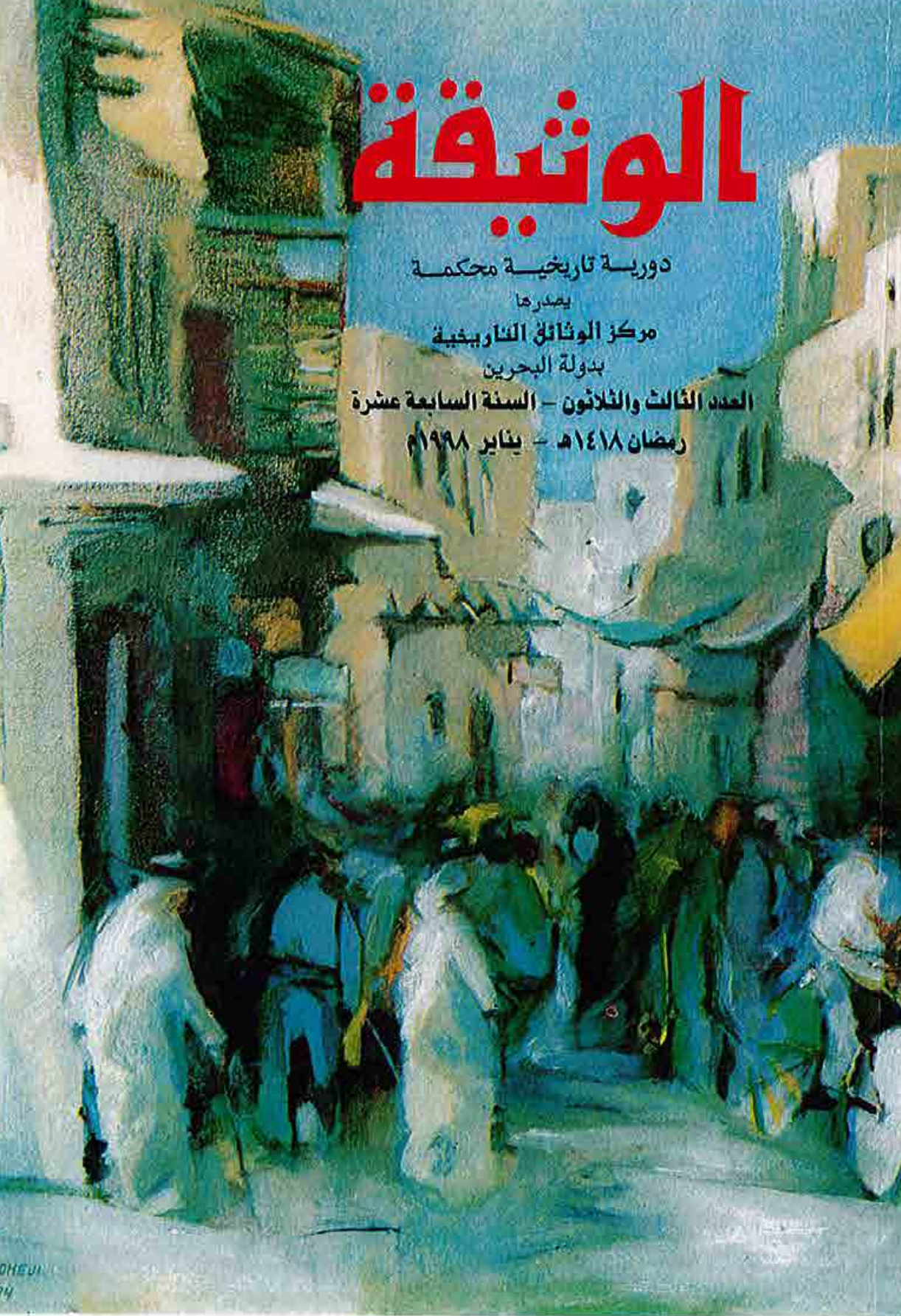

الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد الثالث والثلاثون - السنة السابعة عشرة
رمضان ١٤١٨هـ - يناير ١٩٩٨م

البحرين علاقاتها الدولية

بقلم :

د. توفيق سلطان اليزبكي

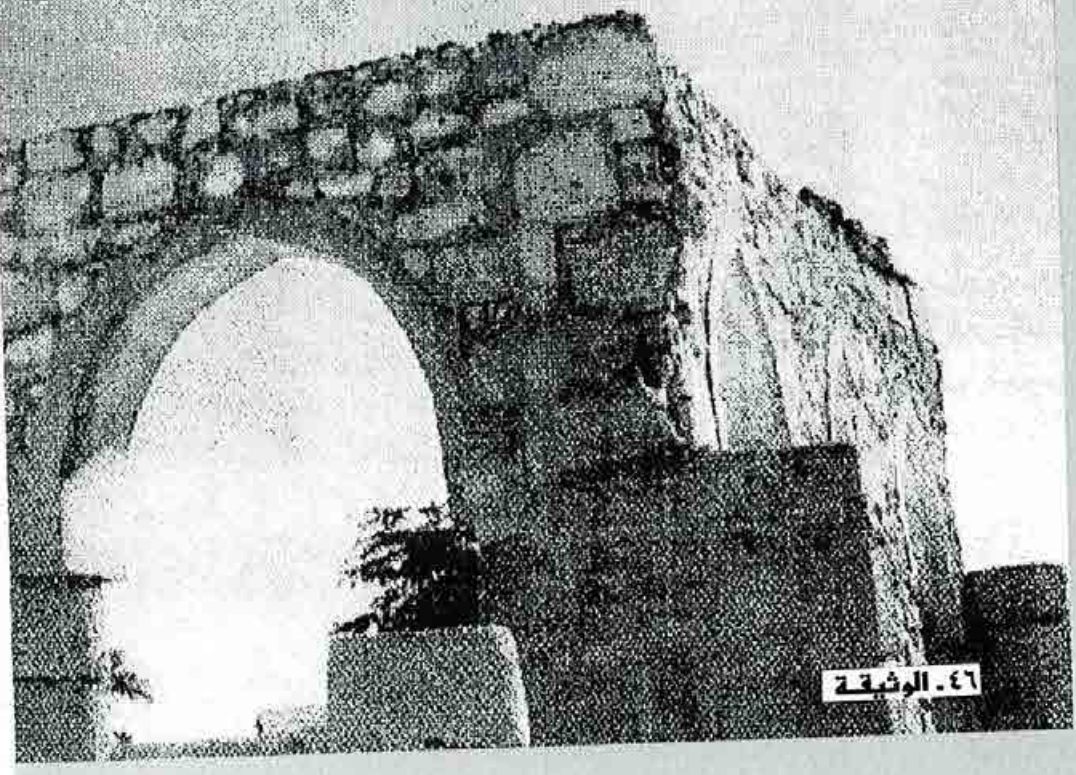

والسياسية بالخلافة العباسية

١٣٢ - ٣٣٤هـ / ٧٤٩ - ٩٤٥م

البحرين .. الموقع والتسمية

تحتل البحرين الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة العرب، وهي تمتد ما بين البصرة وعمان، فإن البصرة تحدها من جهة الشمال، وعمان[١] من الجنوب واليمامة من الغرب[٢]، ومياه الخليج العربي من جهة الشرق[٣]. وبهذا التحديد فإنها تضم الشقة الساحلية الممتدة على طول سيف الخليج العربي ما بين البصرة في الشمال الغربي إلى ما وراء واحة ييرين في الجنوب عند عمان، وما يتبع هذا الشريط الساحلي من جزر تقع أمامه، أما جوف البحرين أو عمقها الداخلي فيمتد حتى الدهناء التي يمكن عدها فاصلاً طبيعياً واضح المعالم بين البحرين واليمامة[٤].

الوثيقة ٤٧.

وقد كان لهذا الموقع أثر كبير في اختيار البحرين مركزاً لعديد من الحركات السياسية نازعت السلطة المركزية في العصرين الأموي والعباسي، فقد كانت حركة القرامطة التي ظهرت في القرن الثالث للهجرة واحدة من تلك الحركات التي عبرت عن نواياها السياسية والفكرية بأساليب العنف التي مارستها تجاه السكان من نهب وقتل الحجاج ومهاجمة المدن والقرى وأخذهم الحجر الأسود خارج مكة . هذا بالإضافة إلى ما تعرضت له البحرين آنذاك من أحداث جسام اقترفتها حركات فارسية اتسمت بنزعتها الشعوبية في وقت كان الشعب العربي في البحرين بريئاً من كل ذلك، فقد قبلها بعضهم تحت وطأة ظروف إرهابية قاسية من تهديد بالقتل والسلب ورفضها غالبيتهم وذلك بالخروج عليها كلما سنحت له الفرصة معلناً إيمانه بوحدة الدولة العربية الإسلامية[٥] .

أما تسمية البحرين : فقد اختلف الجغرافيون والبلدانيون العرب في تسمية البحرين والتي وردت لها عدة تفسيرات تعتمد على وجود بحيرة من نواحي البحرين عند باب الإحساء .

وكان ماؤها راكداً ولا يفيض وزعاقاً[٦] ويتفق الجغرافيون والبلدانيون على اشتقاق اسم البحرين من معنى بحر[٧] . ويقدم ابن المجاور[٨]، تفاسير عدة أقربها إلى الصواب ما يقوله عن جزيرة أوال : "جزيرة في بحر مالح فوق بحر عذب"، فلأجل ذلك سميت البحرين . والراجح أن تسمية البحرين جاء لتوفر المياه المالحة والتقائها بالمياه العذبة التي مصدرها العيون والينابيع المنتشرة في باطن الأرض وقاع البحر وخاصة تلك التي تتدفق من قاع الخليج العربي تحت الماء المالح والتي مصدرها البر .

ومن الواضح أن هذه التسمية وردت في القرآن الكريم في أكثر من آية عن التقاء الماء المالح بالعذب في قوله تعالى "وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج"[٩]. وقوله تعالى "وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج"[١٠]، وقوله تعالى "مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان"[١١] . وقد وردت التسمية باسم (البحران)[١٢] ولا ندري من أين جاءت هذه التسمية . ويبدو أن مصطلح

البحرين كان شائعاً منذ عهد الرسول ﷺ فقد ذكر ابن خياط في تاريخه أن الرسول ﷺ ولي أبان بن سعيد على إدارة البحرين[١٣] .

إدارة البحرين

أولاً : النظام الإداري في البحرين (١٣٢ - ٢٨٢هـ) = ٧٤٩ - ٨٩٥م)

عرفت البحرين منذ عصر ما قبل الإسلام نظام الولاية التي يديرها ويرعى شئونها وأوضاعها فقد كانت تابعة إدارياً للفرس الذين احتلوا أراضيها وعينوا عليها من قِبلهم المنذر بن ساوى[١٤] .

ويبدو أن المنذر بن ساوي كانت له صلاحية مستقلة في إدارة الإقليم ولا علاقة له بالإدارة الفارسية بدليل أنه كان من أوائل الذين دخلوا الإسلام في البحرين، وقد وجدت الرسائل والوفود بين الرسول ﷺ وبين المنذر حول موقف الجاليات الموجودة في البحرين من الإسلام ومنهم الفرس واليهود[١٥] . وهكذا ارتبطت البحرين بالحجاز إدارياً باعتباره مقر الدولة العربية الإسلامية الأولى، وأرسل الرسول ﷺ عدداً من الولاة على البحرين[١٦] . كما تعاقب عليها الولاة في عهد الخلفاء الراشدين منذ خلافة أبي بكر الصديق ﷺ الذي قسم الجزيرة العربية إلى عدة ولايات وعين على كل ولاية منها والياً يرتبط بالعاصمة (المدينة) مباشرة وهي : مكة، الطائف، صنعاء، حضرموت، نجران، جرش، البحرين[١٧] .

وفي خلافة عمر بن الخطاب ﷺ اتسعت الدولة العربية الإسلامية بعد حركات التحرر والفتوح الإسلامية فتطلب الأمر أن يضع الخليفة نظاماً إدارياً يتناسب مع مساحتها لذلك عده الكثير من المؤرخين أول من وضع النظام الإداري في الدولة الإسلامية[١٨] . ففي عهده ضُمت عمان إلى البحرين وأصبحتا إدارة واحدة وليها عثمان بن أبي العاص متخذاً من عمان مقراً له ووجه أخاه لإدارة البحرين نائباً عنه[١٩] .

وفي خلافة عثمان بن عفان ﷺ التحقت إدارة البحرين بولاية البصرة وأمر عليها عبد الله بن عامر (٢٥ - ٣٦هـ) = (٦٤٥ - ٦٥٦م)[٢٠] وذلك لاتخاذه البصرة قاعدة لحركة الفتوح الإسلامية في منطقة الخليج العربي بدلا من البحرين[٢١] . مما شجع على هجرة

بعض عشائر البحرين إلى البصرة من عبد القيس والأزد[٢٢] . واستمر الوضع خلال العصر الأموي حتى العصر العباسي حين أصبحت كل من البحرين وعمان واليمامة إقليماً واحداً بسبب الأحداث التي شهدها الإقليم[٢٣]

إدارة البحرين في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٨٢هـ) (٧٤٩ - ٨٩٥م)

يعد إقليم البحرين من الأقاليم المهمة في الدولة العباسية، ولذلك فقد حرص الخلفاء العباسيون على اختيار أفضل الولاة وأخلصهم ليحسنوا إدارتها ومعالجة أوضاعها ففي خلافة أبو العباس (١٣٢ - ١٣٦هـ) = (٧٤٩ - ٧٥٣م) ولى عمه داود بن علي إدارة البحرين واليمامة ومكة والمدينة[٢٤] . ودامت ولايته سنة واحدة ثم عين عمه سليمان بن علي والياً على البصرة وأعمالها كور دجلة والبحرين وعمان[٢٥] .

وقد تعاقب على إدارة البحرين طوال ولاية سليمان بن علي على البصرة عدد من العمال كانوا بمثابة عمال له منهم : السيح بن الحواري ثم عبد الله بن سليمان بن المنذر ثم عمر بن حفص[٢٦] . وفي خلافة المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) = ٧٥٣ - ٧٧٤م) استمرت ولاية عمه سليمان بن علي إلى سنة ١٤٤هـ = ٧٦١م[٢٧] . وتولى البحرين بعده عدد من العمال منهم السرى بن عبد الله الهاشمي[٢٨] . وشعبان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ثم قثم بن العباس بن عبد الله، وتلاه عبد بن شريط بن عبد ربه[٢٩] فأبو الساج الذي استمرت ولايته إلى سنة ١٥٢هـ = ٧٦٩م[٣٠] ثم سليمان بن حكيم العبدي الذي استولى على البحرين إثر محاولة انفصالية قام بها[٣١] . وعين عقبه بن مسلم واستمرت ولايته للبصرة والبحرين معاً إلى أن عزل لأسباب تتعلق بسوء معاملة أسرى البحرين، وتولى بعده يزيد بن عبد الله الهلالي[٣٢] . وفي سنة ١٥٧هـ = ٧٥٣م تولى سعيد بن دعليج الذي عين ابنه تميم والياً على البحرين[٣٣] .

وفي خلافة المهدي ١٥٨ - ١٦٩هـ = ٧٨٥ - ٧٩٦م أضاف إدارة الأحواز إلى ولاية البصرة والبحرين وولى محمد بن سلمان الذي كانت ولايته من ١٦٠

- ١٦٣هـ = ٧٧٦ - ٧٧٩م[٣٤] . وفي سنة ١٦٤هـ = ٧٨٠م تولى صالح بن داود ثم أعقبه روح بن هاشم ثم النعمان بن محمد فولى الخليفة المهدي الذي أضاف إليه ولايتي فارس وكرمان[٣٥] . ثم أعقبه سويد بن سويد واستمرت ولايته إلى خلافة الهادي سنة ١٦٩ - ١٧٠هـ = ٧٨٥ - ٧٨٦م[٣٦] .

وفي خلافة الرشيد ١٧٠ - ١٩٨هـ = ٧٨٩ - ٨١٨م استحدث منصب إداري أطلق عليه اسم إقليم البحرين والغوص، وأنيطت إدارة الإقليم إلى أحد كبار قادة الرشيد المعلى الذي نجهل اسم أبيه[٣٧] . وتزامن عهده مع ازدياد نشاط قراصنة البحر وتعرضهم لحركة التجارة والنقل وأماكن الغوص واستخراج اللؤلؤ[٣٨] . كما أضاف إلى إقليم البحرين اليمامة وأسند إدارته إلى السندي بن يحيى الحرشي[٣٩] . وفي خلافة المأمون ١٩٣هـ = ٨١٨م أسند إدارة الإقليم إلى ابن أبي عيشبه[٤٠] . ولما تولى المعتصم الخلافة ٢١٨هـ = ٨٣٣م ولى إسحاق بن إبراهيم بن أبي حميصة إدارة البحرين[٤١] . وفي خلافة الواثق أضاف إلى إقليم البحرين طريق مكة، وفي خلافة المتوكل عمدوا إلى سياسة تقسيم أقاليم الخلافة بين أبنائه الثلاثة فكانت البحرين من حصة ابنه المنتصر بالله[٤٢] . وتولاها مروان بن الجنوي، وقد أعاد الخليفة المنتصر ٢٤٧ - ٢٤٨هـ = ٨٦١ - ٨٦٢م محمد بن إسحاق لإدارة البحرين[٤٣] . وفي عهده ثار علي بن محمد (صاحب الزنج) وكان ذلك سنة ٢٤٨هـ = ٨٦٢م للسيطرة على هجر والإحساء إلا أنه غلب فاتجه إلى الأعراب في البادية[٤٤] . ولم تذكر المصادر والي البحرين إذ ذاك وما موقفه من علي بن محمد وأشارت المصادر إلى أن الخليفة المعتز ٢٥٢هـ = ٨٦٦م ولى محمد بن أبي عوف بعد أن أعاد ولاية البحرين واليمامة إلى ولاية البصرة[٤٥] .

وأعقبه سعيد بن صالح حتى خلافة المعتمد الذي عزله وولى مكانه ياركوج[٤٦] . وفي سنة ٢٦١هـ = ٨٧٠م تولى موسى بن يفا إدارة إقليم فارس والأحواز والبحرين واليمامة[٤٧] . ثم أسند المعتمد إدارة الإقليم إلى أحمد بن يور[٤٨] . وقد تزامنت ولايته على البحرين مع نشاط أبي سعيد الجنابي

الـذي تمكـن مـن السـيطرة علـى البحرين[٤٩] .

ثانياً : إدارة البحرين في فترة الانفصال (٢٨٢ - ٣٣٤هـ) (٨٩٥ - ٩٤٥م)

اتسمت هـذه الفترة بظـهور حركـة القرامطة التي اتخذت من إقليم البحرين مركـزاً لهـا وهـي جـزء مـن حركـات انفصالية ظهرت قبل هذا التاريخ والـتي انفصلـت إداريـاً عـن الدولـة العباسـية، وأصبحت تشكل خطراً لا على الدولـة فقـط وإنمـا علـى المجتمـع العربـي الإسـلامي في الخليـج العربـي . فقـد اختلف المؤرخون في بداية ظـهور حركـة القرامطة، ويرجح أغلبـهم أنـها ظـهرت في سـنة ٢٨١هـ = ٨٩٤م عندمـا قـدم رجل يعرف باسم يحيى بن المـهدي إلى مدينـة القطيـف ونـزل في ضيافـة رجـل يدعى علي بن المعلى بن حمدان - وقـد كان من المغالين في الديـن - وأخـذ كـل من علي ويحيى يدعوان الناس فيـها إلى دعوتـهما[٥٠] . وفي روايـة أخـرى أن عيـدان أرسـل أبـا سـعيد الجنـابي إلى البحريـن وزوده بـالأموال والكتـب[٥١] . وقد حاول أبو سعيد الجنابي جمع أكبر عدد مـن المؤيديـن ومـن انضـم إليـه مـن الأعراب واللصوص . فتمكن من السيطرة على القطيف[٥٢] . ثم سـعى إلى توسـيع رقعة أراضيـه بضـم مـدن جديـدة فـهدد مدينة البصـرة وتمكـن مـن دحـر جيـش الخلافة ثـم تفرغ لحصـار مدينـة هجـر وتمكن من اقتحامها وقتل مـن فيـها ولم ينج إلا من هرب[٥٣] .

وفي سنة ٢٩٠هـ = ٩٠٢م تجـددت المعـارك مـع ابـن جـور عـامل الخليفـة العباسي ثم تبع ذلـك فـترة هـدوء حتـى سنة ٢٩٩هـ = ٩١١م ولم تذكـر المصـادر أي نشاط لأبي سعيد أو موقف الخلافـة منـه ويبـدو أنـه تمكـن مـن طـرد الـوالي العباسـي مـن البحريـن وتفـرغ للنواحـي الإدارية والعمرانية من أجل إقامة النظام السياسي الذي وصـف بأنـه : نظـام ذو وجوه ومرافق وقوانين ومراصـد وضـروب مرسومة شملـت سـائر مرافـق الحيـاة في البحرين[٥٤] . جـاعلاً مـن نفسـه القـائد الأعلى للجيش والسلطة كافة[٥٥] .

وقد ادعى أنه يسـتمد تعاليمـه مـن (إمـام الزمـان) الـذي أصبـح أبـو سـعيد عاملاً له وحاكماً بإسمه ومؤديـاً الطاعـة له[٥٦] . يعاونه مجلس مؤلف من أتباعه المقربين وأهله[٥٧] . ويتكون المجلس من اثني عشر عضواً يقـوم بـإدارة الدولـة في

النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية[٥٨] . وكان أبناء أبي سعيد أعضاء في هذا المجلس وكانت لهم مسئولياتهم في إدارة الدولة وعند وفاته سنة ٣٠١هـ = ٩١٣م ترك وصية حدد فيها النظام السياسي الذي يسيرون بموجبه[٥٩] . ولقد قضى أبو سعيد الجنابي في إدارة البحرين مدة ١٩ سنة من ٢٨٢ - ٣٠١هـ = ٨٩٥ - ٩١٣م وضع خلالها الهيكل الإداري والسياسي والاقتصادي من خلال الإجراءات التي قام بها، وقداعتبر فريق من المؤرخين أنه أقام نظاماً اشتراكياً وذلك من خلال التدابير الاقتصادية التي اتصفت بنزعة ثورية يساريةً[٦٠] وفي حين عده البعض الآخر نظاماً اشتراكياً متطرفاً[٦١] . وقد ذهب باحثون آخرون إلى أن نظامه نظام اجتماعي واقتصادي يحقق على حد زعمهم المساواة الاجتماعية والرفاه المادي[٦٢] . ومن المؤرخين من لا يرى أن نظامه لا يتصف لا بالاشتراكي ولا بشبه الاشتراكي لكونه لم يقم على أسس نظرية يمكن دراستها ضمن مجرى الفكر الاشتراكي[٦٣] . ويبدو من تطبيقات النظام أن مجتمع البحرين مجتمع طبقات ففيه العبيد الأرقاء الذين بلغ عددهم ٣٠ ألف عبد زنجي وحبشي[٦٤]. وإلى جانبهم الإماء (الجواري)[٦٥]، وقد قسم العمل على أساس الطبقات . فطبقة العبيد والزنج والإماء مهمتهم العمل في الزراعة وفلاحة البساتين ورعاية الحيوانات[٦٦] . وأغلب أفراد القبائل العربية يعمل في الجندية، كما لم يلغ النظام الإداري في البحرين الملكية الفردية سواء أكانت ملكية الأرض أو المال، فقد وزعت الأراضي على أقربائهم وأتباعهم بدليل أنهم نصبوا على أراضيهم العرفاء وأقاموا عليها العمال والفلاحين من العبيد[٦٧] . والأكثر من هذا لم تعد الملكية عامة فقد كانت ممتلكات أبي سعيد الجنابي على سبيل المثال سنة ٣٠١هـ = ٩١٣م من الأبقار والثيران ألف رأس، ومن الخيل والجمال ألف رأس ومن الأواني الذهبية والفضية ما قيمته مائة ألف دينار، ومن النقود ألف ألف دينار[٦٨] .

كما استحوذ على نصف ما يستخرج من البحر بالإضافة إلى امتلاكه الطواحين كافة[٦٩] . أما توزيع الأموال فلم نلمس في توزيعها أي وجه للنظام الاشتراكي الذي وصفه بعض المؤرخين، فإن الأموال كانت تذهب إلى الطبقة الخاصة بنسب اتفقوا عليها وحرمت

بقية فئات المجتمع منـها، وقـد وصـف ابن حوقل[٧٠] نسب الأموال التي تذهب إليهم فقال :

مـا يدفـع مـن الأمـوال إلى صـاحب الزمان تصل نسبته إلى الخُمُس من المـال الذي يسـاوي ألـف ألـف دينـار ولربما يزيد علـى المائـة والمـائتي ألـف دينـار، ويعطي ثلاثة أخماس لأبناء أبي سـعيد، كما يدفع الخُمُس الباقي إلى السنابره .

والواقع أن هذا النظام الذي وضعـه أبو سعيد الجنابي لم يكـن يعرفـه أهـل البحرين من قبل، وبوفاته انتقلـت إدارة البحريـن إلى أبنائـه مـن بعـده لإكمـال مسيرة نظامه . وقد ترك وصية أن يكون القيم بأمرهم هو سعيد ابنـه إلى أن يكـبر أبو طاهر، فإذا كبر كان المدبر وقد جرى الأمر على ذلك[٧١] .

وقد حكم سعيد البحرين بين سنتي ٣٠١ - ٣٠٥هـ = ٩١٣ - ٩١٧م[٧٢] . ولم تحفل المصـادر التاريخيـة بذكـر أي حدث خلال فترة حكمه مما دفع بعـض المؤرخين إلى القول أن هذه الفترة سـادها السلام والوئام وحسـن العلاقـة والتقـرب من الخلافة العباسية مما أثـار حفيظـة الدولة الفاطميـة في مصـر والـتي أثـارت الفتن بين أبناء أبي سعيد فخلعوا سعيداً وولوا أخاه أبـا طـاهر[٧٣] . ومـهما يكـن من أمر فإن أبا طاهر تولى إدارة البحرين سنة ٣٠٥هـ = ٩١٧م يعاونه إخوته أبـو القاسم سـعيد وأبـو منصـور محمـد وأبـو إسحاق إبراهيم وأبو العباس محمد وأبـو يعقـوب يوسـف[٧٤] . وقـد أطلـق نـاصر خسـرو[٧٥] عليـهم اسـم "السـلاطين ثـم السـادات" فكـانوا قـادة الإقليـم وبيدهـم إدارته يعاونهم ستة وزراء وأطلـق علـى هـؤلاء الـوزراء اسـم السنابرة . ويـرأس مجلـس الـوزراء أبـو طـاهر وصـهره أبـو محمـد سـنبر أحـد رجـال البحريـن المعروفين[٧٦] .

ويتولى هذا المجلس قيـادة الجيـش وإدارة مجلس الـوزراء، ويعقـد المجلـس جلساته في دار الهجرة التي تم بناؤها في عاصمته المؤمنية[٧٧] .

وبوفاة أبي طاهر تولى إدارة البحرين أخـوه أبـو القاسـم سـعيد وهيمـن علـى مقاليد الحكم[٧٨] .

واستمرت إدارة البحَرين بين أبناء أبي سعيد الجنابي يتناقلها الأبناء عن الآباء حتى تم القضاء عليهم على يد الأسرة العيونية سنة ٤٦٩هـ = ١٠٧١م[٧٩] .

الأوضاع السياسية في البحرين وموقف الخلافة العباسية (X)

اتخذ إقليم البحرين أكثر من مرة مركزاً لعدد من الحركات التي أعلنت خروجها على الدولة العباسية، ويبدو أن للعامل الجغرافي أثره في ذلك لبعد البحرين عن مركز الخلافة مما جعل الإقليم محافظاً على عاداته وتقاليده العربية الأصيلة وتغلب الروح القبلية فيه فضلاً عن وجود أجناس غريبة في هذا الإقليم من فرس ويهود والتي لعبت دورها في هذه الحركات، كما لم يكن العامل الاقتصادي أقل أهمية من العوامل الأخرى فقد كانت الحالة المعيشية للسكان متدهورة وكان لها أثرها على الأوضاع الاجتماعية والثقافية مما دفعهم إلى قبول أية دعوة من شأنها أن ترفع مستواهم الاقتصادي المتدني[٨٠] مما جعل سكان البحرين صيداً للحركات التي اتخذت من البحرين مركزاً لها كحركة علي بن محمد (صاحب الزنج) وحركة ابن سعيد الجنابي القرمطي التي وعدت بالرخاء ورفاه الأحوال[٨١] . وتشكل الحركات التي ظهرت في البحرين جزءاً من حركات انفصالية ظهرت في عدد من أرجاء الدولة العربية الإسلامية ولكنها لم تلبث قليلاً سوى حركة قرامطة البحرين التي دامت ما يقارب أربعة قرون استهدفت فصل إقليم البحرين عن الخلافة العباسية[٨٢] . وكانت أولى الحركات التي ظهرت في البحرين وأعلنت عصيانها على الخلافة العباسية حركة سليمان بن حكيم العبدي الذي استطاع انتزاع مقاليد الولاية من أبي الساج عامل الخليفة المنصور مستغلا انشغال الخليفة بأمر خراسان[٨٣] . إلا أن المنصور كان متفانياً في المحافظة على وحدة الدولة العربية الإسلامية فاستدعى عامله على البصرة عقبة بن مسلم سنة ١٥٠هـ = ٧٦٧م ووضع الخطط اللازمة

لقمع الحركة فاتجه إلى البحرين وتمكن من القضاء عليها[٨٤] .

وفي خلافة الرشيد ١٧٠هـ =٧٨٦م قام سيف بن بكير بحركته في البحرين معلناً تمرده على الخلافة العباسية ومتخذاً من مدينة هجر قاعدة له[٨٥] . فأسرع الرشيد بإسناد قمع الحركة إلى محمد بن يزيد الذي تمكن من القضاء عليها وقتل قائده في معركة عين النورة[٨٦] .

وفي خلافة المستعين(٢٤٨ - ٢٥٢هـ) = (٨٦٤ - ٨٦٨م) تحرك علي بن محمد من مدينة سامراء سنة ٢٤٩هـ = ٨٦٥م إلى مدينة هجر معلناً تمرده وعصيانه على الخلافة العباسية[٨٧] ولم تكن سامراء مركزاً صالحاً لأي عصيان لكونها عاصمة الخلافة ولبعد البحرين عن العاصمة . وزعم علي بن محمد النسب العلوي[٨٨] ليضفي على حركته الصفة العلوية، كما ادعى أنه من قبيلة عبد القيس في حين أن عبد القيس من القبائل التي أسهمت في القضاء على حركته مع قوات الخلافة[٨٩] . وأن ابن أبي الحديد يطعنه في نسبه ودينه ويرميه بالزندقة والإلحاد[٩٠] . ويؤكد جمهرة من المؤرخين أنه من أصل فارسي من قرية (ورزنين) في فارس واسمه (بهبود)[٩١] .

ومهما يكن من أمر في اختلاف نسبه وعقيدته فإنه اتخذ من مدينة هجر مركزاً لحركته فاتبعه جماعة ورفضته أخرى مما أدى للاقتتال بينهما فانتقل إلى الإحساء متخذاً منها مركزاً لحركته[٩٢] . ولكنه سرعان ما ترك الإحساء لفشله في التوفيق بين قبائلها فاتجه إلى البادية مستغلاً بساطتهم، فقد أوهم الناس بأنه يحيى بن عمر العلوي الذي قتل على مقربة من الكوفة وزعم أنه المهدي المنتظر[٩٣] . وبهذه المزاعم استطاع كسب أعداد كبيرة من أعراب البادية[٩٤] . مما دفع إلى محاولة توسيع سلطته إذ تمكن من جمع جيش من الأعراب زحف بهم إلى مدينة الردم وجرت معركة بين أتباعه وسكان المدينة بقيادة العربان بن الهيثم الذي تمكن من سحق قوات علي بن محمد فاضطر إلى ترك البحرين واللجوء إلى مدينة البصرة سنة ٢٥٤هـ = ٨٦٨م[٩٥] .

وفي سنة ٢٨١هـ = ٩٤٠م ظهرت حركة جديدة في البحرين متمثلة بحركة (القرامطة) والتي تعد من أشد الحركات الخارجية خطراً على الخلافة العباسية

لاستخدامها أساليب العنف والقوة تجاه سكان المدن وقوافل الحجاج والتجارة لزرع الرعب والخوف في النفوس[٩٦] .

وترجع بداية ظهور حركة القرامطة في العراق إلى سنة ٢٧٨هـ-٨٩١م عندما قدم رجل من الأحواز يعرف باسم عبد الله بن ميمون القداح من أهل قوزح ادعى فيها النبوة وحاولت السلطة العباسية القبض عليه فهرب وبرفقته رجل من أصحابه يعرف بـ (الحسين الأحوازي) فنزلا على قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب ﷺ في مدينة البصرة، وأخذا يعملان على تنظيم حركتهما محاولين كسب أعداد من السكان إلا أن أمرهما كشف فهربا إلى مدينة شامية واستمر عبد الله بن ميمون في نشر دعوته إلى أن توفى فخلفه ابنه أحمد وإليه يرجع الجهد في تنظيم وتوسيع قاعدتهم، فأرسل حسين الأحوازي كداعية إلى سواد العراق فاستطاع أن يكسب رجلاً يدعى حمدان بن الأشعث فأرسله إلى الكوفة داعياً هناك[٩٧] . ونزل على رجل يدعى (كرميتة) فسمي هو بنفس الاسم نسبة إلى صاحب الدار الذي نزله[٩٨] ، ثم حوّر الاسم فقيل له قرمط [٩٩] .

وقد سعى حمدان قرمط إلى توسيع قاعدة حركته باتباع مختلف الوسائل منها أنه أخذ يظهر الزهد والتقشف ويكثر من الصلاة ، ثم بدأ يدعو إلى إمام من آل بيت الرسول ﷺ فاستجاب لدعوته جمع كثير منهم رجل يدعى (عبدان) الذي أخذ يؤلف الكتب في توضيح أفكارهم[١٠٠] .

أما نشأة الحركة القرمطية في البحرين فقد اختلف المؤرخون في تاريخ نشأتها وعلى أرجح الآراء تعود إلى سنة ٢٨١هـ = ٨٩٤م عندما قدم رجل يعرف باسم يحيى بن المهدي إلى مدينة القطيف فنزل في ضيافة رجل يدعى علي بن المعلّى بن حمدان وقد كان من المغالين في الدين، وأخذ علي ويحيى يدعوان الناس في القطيف إلى دعوتهما[١٠١] . وفي رواية أخرى أن (عبدان) هو صهر حمدان قرمط أرسل أبا سعيد الجنابي إلى البحرين وزوده بالأموال والكتب[١٠٢] . وقيل بأن حمدان هو الذي أرسل داعيه إلى البحرين بعد أن وجد فيه المقدرة

والكفاءة[١٠٣] . وإليه يرجع الفضل في نشر دعوة القرامطة . فقام بتنظيم الدعوة واجتمعت إليه الأعراب فكان منهم من قبيلة عبد القيس بن ربيعة[١٠٤] .

كما انضم إليه من بقي من الزنج[١٠٥]، وانضم إليه عدد ممن لهم شأن كبير في البحرين منهم أبو سنبر وأخواه حمدان والحسن فصاهرهم وعظم أمره بهم[١٠٦] . فتمكن من السيطرة على القطيف وتوسع سلطانه إلى مناطق أخرى كما ساعده في ذلك النزاعات القبلية[١٠٧] . وفي سنة ٢٨٦هـ = ٨٩٩م اشتد خطر أبي سعيد الجنابي وذلك بتهديده بالاستيلاء على البصرة مما دفع أميرها محمد بن يحيى الواثقي لإنشاء سور حول المدينة[١٠٨] . وبادر الخليفة المعتمد إلى نقل العباس الغنوي من ولاية فارس سنة ٢٨٧هـ = ٩٠٠م وعينه والياً على اليمامة والبحرين وزوده بألفي فارس لقتال الجنابي، كما انضم إليه عشرة آلاف من المتطوعة[١٠٩] . ومع ذلك فقد تقدم الجنابي لاحتلال البصرة سنة ٢٨٩هـ = ٩٠٢م وكاد الغنوي أن ينتصر على أبي سعيد لولا هروب المتطوعة من الأعراب وأخذ الغنوي أسيراً مع ٧٠٠ من جنده، وفي اليوم الثاني أقدم أبو سعيد على قتل جميع الأسرى ثم أحرقهم وأخذ الغنوي أسيراً إلى البحرين، ولم يلبث أن أطلقه وحمله رسالة إلى الخليفة العباسي[١١٠] . وبعدها اتجه أبوسعيد إلى هجر وفرض الحصار عليها وقطع المياه عن أهلها مما دفعهم إلى الاستسلام فقتل من أهلها خلقاً كبيراً دون رحمة وهرب عدد كبير منهم إلى البصرة، وأخذ من بقي منهم إلى الإحساء، وقدر عدد من قتلهم بـ ٣٠٠,٠٠٠ حرقاً بالنار[١١١] . وأكثرهم من النساء والشيوخ والأطفال إذ هيأ لهم ما يعرف بـ (الخطار) وهي محرقة فأشعل النار بهم[١١٢] . وإزاء هذه الهزائم التي لحقت بجيش الخلافة والجرائم البشعة التي ارتكبها أبو سعيد في مدينة هجر أصبح لدى الخلافة العباسية قناعة بأن أبا سعيد يحمل أهدافاً توسعية لذلك اقترح الوزير علي بن عيسى مكاتبة الجنابي وإرسال الوفود له، وبينما الوفد في طريقه إلى البحرين ترددت أنباء مقتله على يد خادمه الصقلي[١١٣] . فتوقف الوفد في انتظار موقف الخلافة التي أصدرت أمرها باستكمال الرحلة والتفاوض مع أبنائه[١١٤] . وقد توصل الوفد إلى اتفاق بأن يعلن القرامطة طاعتهم للخليفة

مقابل السماح لهم بالتسوق من سيراف[١١٥] .

تولى أبو سعيد الإبن الأكبر أمر القرامطة ولكنه عجز عن القيام بالأمر فغلبه أخوه أبو طاهر ٣٠٤هـ = ٩١٧م وتولى إدارة البحرين[١١٦] . وسار سيرة أبيه بُشن غارات على المدن وقتل الحجاج وسلب ما يقع في يده . بادر سنة ٣٠٧هـ = ٩١٩م بمهاجمة البصرة وسلب ونهب وعاد إلى مهاجمتها عام ٣١١هـ = ٩٢٤م فاستباحها وقتل أهلها كما قتل واليها سبك المفلحي وخرب كافة المرافق الدينية والاقتصادية فيها[١١٧] .

وإزاء هذه المآسي التي حلت بسكان البصرة أقدم الخليفة على تعيين محمد الغارقي والياً على البصرة، وإرسال تعزيزات عسكرية لإنقاذها، كما تعرض أبو طاهر لقافلة من الحجاج قادمة من مكة المكرمة فأوقع بالقافلة وأسر مرافقها أبو الهيجاء مع عدد من كبار رجال الدولة وترك قسماً من القافلة بينهم النساء والأطفال فمات أكثرهم من الجوع والعطش[١١٨] . وكانت ردود فعل العامة أن هاجموا دار الوزير ابن الفرات ونعتوه بالقرمطي الكبير[١١٩]، وقد هدف أبو عامر من هذه الأعمال إلى إرغام الخلافة على قبول شروطه بضم البصرة والأحواز[١٢٠] . وإزاء عدم تلبية مطالبه أعاد هجومه على البصرة والكوفة وقوافل الحجاج سنة ٣١٢هـ وحاول الخليفة المقتدر معالجة الموقف فأمر بنقل يوسف بن أبي الساج من ولاية فارس سنة ٣١٤هـ = ٩٢٦م وخصص خراجاً للنفقات العسكرية[١٢١] . أما أبو طاهر فلم يعر أي اهتمام لهذا الإجراء ففي سنة ٣١٥هـ = ٩٢٧م هاجم الكوفة بعد أن علم أن واليها قد أعد المؤن لقوات أبي الساج فأسرع بالدخول للكوفة قبل قوات أبي الساج فأخذ المؤن دون مقاومة[١٢٢] . وهرب سكانها إلى بغداد وحلوان وهمدان[١٢٣] . وتابع أبو طاهر هجومه على عين التمر والأنبار وهيت، وكانت مدينة هيت محصنة وأهلها على استعداد لقتاله فقتلوا أعداداً كبيرة من أتباعه ومنهم أحد قادته أبا الدرداء القرمطي[١٢٤] . فاضطر أبو طاهر إلى الانسحاب وأخذ في طريقه يهاجم المدن والقرى كالرحبة وقرقيسيا ورأس العين وصيبين وسنجار حتى بلغ مدينة الموصل[١٢٥] . عاد بعدها إلى سواد الكوفة ليمارس نشاطه فيها .

وفي سنة ٣١٧هـ = ٩٢٩م تقدم أبو طاهر نحو مكة المكرمة وكان يوم التروية والحجاج يؤدون مناسك الحج فقتل الحجاج في المسجد الحرام، كما قتل أمير مكة وقارب عدد القتلى ٣٠,٠٠٠ حاج، ورمى قسماً منهم في بئر زمزم، وسلب كسوة الكعبة ونهب دور أهل مكة وقلع الحجر الأسود ونقله معه إلى هجر كما قلع الباب والمحاريب الفضية وبلغ ما أخذه من الأموال ألف ألف دينار والدرة اليتيمة وعصا موسى والقناديل[١٢٦] . وأعيد الحجر الأسود إلى مكة بعد ٢٢ سنة[١٢٧] أي سنة ٣٣٩هـ =٩٤١م .

وعاد أبو طاهر إلى مهاجمة الكوفة سنة ٣١٩هـ = ٩٣١م فهرب أهلها إلى بغداد فخرج أهل بغداد رافعين المصاحف طالبين التصدي لأعمال وجرائم أبي طاهر[١٢٨] . فمكث فيها ١٥ يوماً سفك الكثير من الدماء ونهب الأموال وعاد إلى هجر[١٢٩] . وأخذ يهاجم المدن الساحلية المطلة على الخليج العربي بهدف التحكم بطرق التجارة وتعطيل حركة النقل[١٣٠] . كما هاجم سنة ٣٢٣هـ = ٩٣٤م مدينة القادسية وقوافل الحجاج وأعاد هجومه على الكوفة[١٣١] .

وكانت ردود فعل الخلافة أن تضرع الخليفة الراضي إلى الله لشدة حزنه لما أصاب الحجاج كما صام عدة أيام[١٣٢]

ويبدو أن أبا طاهر كان هدفه من هذه الأعمال الإجرامية المتكررة الحصول على الأموال بسلب ونهب المدن وقوافل الحجاج وإرغام الخلافة على الاعتراف بما تحت يده من الأراضي ولتأمين طريق الحج لقاء مبلغ من المال يدفعه الخليفة له مما اضطر الخليفة سنة ٣٢٥هـ إلى إرسال وفد لمفاوضته بأن الخليفة على استعداد لدفع ١٠٠ ألف دينار سنوياً بشرط أن يدخل أبو طاهر في طاعة الخليفة فلم يجبه[١٣٣] . وفي رواية أخرى : أن صاحب أفريقيا طلب منه الكف عن مهاجمة قوافل الحجاج مقابل أن يدفع خمسة دنانير على الجمل و٧ دنانير على المحمل[١٣٤] . ومنذ عام ٣٢٦هـ = ٩٣٧م لم يظهر لأبي طاهر أي نشاط سياسي أو عسكري تجاه قوافل الحجاج ومدن وأقاليم الدولة العباسية .

د. توفيق سلطان اليزبكي
كلية الآداب - جامعة الموصل